Al-Mīthāq ***(Research Journal of Islamic Theology)***
ISSN: 2791-0989 (P), 2791-0997 (E)
Volume 03, **Issue** 03, October-December 2024, **PP**: 24-32
Open Access at: https://almithaqjournal.org/

Article QR

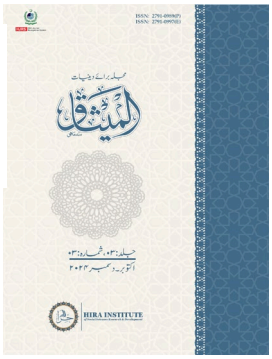

وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي

The Description of Nature in the Poetry of Ibn e Khafājah Al-Andalusī

1. Shaista Kanwal
shaista.kanwal1991@gmail.com
Lecturer(Arabic)
Government Graduate College for Women Chishtian

2. Dr. Muhammad Ramzan Ashraf
ramzan.ashraf@iub.edu.pk
Assistant Professor,
Department of Arabic,
The Islamia Unviersity of Bahawalpur.

How to Cite: Shaista Kanwal and Dr. Muhammad Ramzan Ashraf. 2024: "The Description of Nature in the Poetry of Ibn e Khafājah Al-Andalusī". Al-*Mīthāq (Research Journal of Islamic Theology)* 3 (03): 24-32.

Article History:

Received:	**Accepted**:	**Published**:
16-11-2024	20-12-2024	31-12-2024

Copyright: **©The Authors**

Licensing: This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Conflict of Interest: Author(s) declared no conflict of interest.

Abstract & Indexing

Publisher

HIRA INSTITUTE
of Social Sciences Research & Development

وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي

The Description of Nature in the Poetry of Ibn e Khafājah Al-Andalusī

1. **Shaista Kanwal**
Lecturer (Arabic), Government Graduate College for Women Chishtian.
shaista.kanwal1991@gmail.com

2. **Dr. Muhammad Ramzan Ashraf**
Assistant Professor, Department of Arabic, The Islamia Unviersity of Bahawalpur.
ramzan.ashraf@iub.edu.pk

Abstract

Abū Al-Fatḥ Ibrāhīm bin Khafājah, renowned as one of the most celebrated poets of Andalusia, is particularly distinguished for his vivid depictions of Andalusian nature. Living between 450 AH and 533 AH, he eloquently captured the unparalleled beauty of Andalusia, characterized by its fertile lands, flowing rivers, lush gardens, majestic mountains, and expansive green valleys. *Ibn Khafājah* masterfully described various elements of this enchanting landscape, including fountains, flowers, trees, rivers, ponds, seas, and other natural and inanimate features. Andalusian critics aptly referred to him as "the gardens of Andalusia" and "the conifers of Andalusia." His poetry is marked by emotional depth and creative brilliance, replete with striking imagery and imaginative expressions. While his work spans diverse poetic themes, his reputation largely rests on his enchanting portrayals of nature. Employing intricate metaphors, similes, alliteration, and antithesis, his verses achieve artistic excellence, though their meanings can sometimes pose challenges for readers.

Keywords: *Ibn Khafājah, Andalusia, Nature, Poetry, Artistic.*

المقدمة

يعدأبوالفتح إبراهيم بن خفاجة من أكبر شعراء الأندلس في وصف الطبيعة الأندلسية وقد امتازت أرض الأندلس بجمال الطبيعةوخصوبةالأرض والأنهارالجاريةوالحدائق الغناء والجبال الشامخة والأودية الخضراء الواسعة،إذ يمتد عصره بين(450هـ –533هـ)،وكانت ولادته في جزيرة (شقر) ، وقد وهب الله هذه الجزيرة أيضاً طبيعةً ساحرةً من أنهار وأزهار ورياض وبساتين ، وهذه الطبيعة قد سحرت ابن خفاجة واستولت على لبه وعقله، بل إن هذه الصلة الوثيقة بها قد أثرت في نفسه تأثيراً بالغاً ،فابن خفاجة اعتنى بوصف مظاهرالطبيعة الأندلسية كالنواوير والأزهاروالأشجار والأنهار والبرك والبحار وما إلى ذلك من المظاهر الحية والجامدة ، وليس عجيباً أن يصفه النقاد الأندلسيون بـ(جنان الأندلس) أو لقبوه بـ(صنوبري الأندلس) ـ

يُعتبر شعره من النوع العاطفي الإبداعي الذي يزخر بالصور الجميلة والخيال الرائع. وقد شمل شعره مختلف الأغراض الشعريةالشائعةمثل الغزل، والرثاء، والمدح، والفخر، والشكوى، وغيرها. ومع ذلك، فقد اشتهر بوصف الطبيعة ومناظرها الخلابة الآسرة. وما يميز شعره أنه يطغى فيه عنصر وصف الطبيعة حتى في الأغراض الأخرى، حيث مزج بين الطبيعة والرثاء بشكل جريء وغيرمسبوق.فقداستطاع ابن خفاجةأن يدمج بين الطبيعة الساحرة التي تعكس بداية الحياة وجمالها وفرحها، والرثاء الذي يمثل نهاية الحياة وأحزانها وآلامها. ورغم صعوبة الجمع بين هذين النقيضين، إلا أنه نجح في تقديم هذا المزيج بأسلوب بديع وأنيق. كما استخدم في شعره أساليب البيان والبديع مثل الاستعارات والتشبيهات والجناس والطباق،مماجعل معانيه أحياناًتتسم

بالتعقيدعلى القراء. الكلمات المفتاحية : وصف الطبيعة، جمال الطبيعة، مظاهر الطبيعة، أسلوب.

يهدف هذاالبحث إلى دراسة وصف الطبيعة الأندلسية في شعر ابن خفاجة، وهذه الطبيعة التي قد بهرت أعين الشعراء الأندلسيين بجمالها الفاتنة، فمالوا إلى وصف مظاهرهاالجميلة التي قد هباها الله الأندلس من غزارة أشجارها وكثرة أزهارها وأنداء أفيانها الوارفة وجبالها المغطاة بالثلوج ،وساعدت هذه الطبيعة الفاتنة على نضوج الشعر وحلاوته، وإن شعر الطبيعة في الأندلس قد تعددت أغراضه ولم تعرف الزهريات والمائيات والثلجيات وما إليهاإلا في القرن الخامس،وقد بين هذاالبحث العوامل التي لعبت دوراً كبيراً في جعل إبراهيم بن خفاجة أكبر شعراءالأندلس في وصف الطبيعة الأندلسية ، وكانت ولادته في جزيرة (شقر) سنة 450هـ ، يحيط نهر شُقر بهذه الجزيرةمن كل الجهات،مماجعلها واحدةمن جنان الأندلس.يتناول هذاالبحث شعر ابن خفاجة وأغراضه و خصائصه،حيث تناول جميع الأغراض الشعرية لكنه اشتهر بوصف الطبيعة ومناظرها الخلابة. و أكثرمن ذلك،امتزج وصف الطبيعةبأغراضه الشعريةالأخرى،خاصةالرثاء.وقدوصفه النقاد الأندلسيون بـ"جنان الأندلس" ولقبوه بـ"صنوبري الأندلس". يتميز شعره بالطابع الوجداني المليء بالصور الجميلة والخيال البديع.

نبذة عن حياته

ولد أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة عام 450هـ في جزيرة شُقر التابعة لأعمال بلنسية، الواقعة في شرق الأندلس. أطلق عليها اسم جزيرة لأن نهر شُقر يحيط بها من كل الجوانب، مما جعلها تبدو كجنة من جنان الأندلس.[1]

كان شاعراً مبدعاً وأديباً موهوباً وكاتباً فصيحاً، تناول مختلف الأغراض الشعرية، إلا أن وصف الطبيعة هيمن على شعره. فقد تفنن في تصوير الأشجار والثمار والحدائق والبساتين دون أن يلجأ إلى مدح ملوك الطوائف أو طلب عطاياهم،على الرغم من حرصهم الشديد على تكريم أهل الأدب.ووفقاً لما قاله الزركلي:"كان شاعراً غزلاً ومن الكتاب البلغاء،تميز شعره بوصف الرياض ومشاهد الطبيعة. وهو من سكان جزيرة شُقر التابعة لأعمال بلنسية في شرق الأندلس.ولم يلجأ إلى استجداء ملوك الطوائف رغم شغفهم بالأدب وأهله.وله ديوان شعر".[2]

وقد نشأ وترعرع ابن خفاجة في مهد العلم والفضيلة ، فأقبل على الدرس ، وحفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية، ودرس الشعر والنثر وعلوم اللغة وتضلع في جميع العلوم الإسلامية،لكن مال إلى دراسة الأدب والتعمق فيه.وقد كان ابن خفاجة في شبابه صاحب لهو ومجون،كما وصفه الفتح بن خاقان بقوله: "وكان في شبيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه كثير الوسن،بين صفاالانتهاك وحجونه لايبالي بمن التبس،ولاأي نارٍ اقتبس."[3]

وابن خفاجة يتغني في أشعاره بشرب الخمر، والمجون ، والطبيعة الجميلة من حوله كما يتجلى هذا العنصر الكبير في أشعاره واضحاً جلياً في السطور التالية وبعد أن بلغ به الكبر عتياً ، ندم على ما فاته ، وابتعد عن لهو الصبا ومجونه ، وأخذ يفكر دائماً في مآله ، فأخذ يقرض الأشعار في العظمة والاعتبار ، والتوبة والابتهال والاستغفار. وقد حدثنا الفتح بن خاقان في قلائد العقيان عن توبته ، فقال : " إلا أنه قد نسك اليوم نسك ابن أذينة ، وغضّ عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه ، وقد أثبت ما يقف عليه اللواء ، وتصرف إليه الأهواء."[4]
وقد نقل الفتح بن خاقان قول ابن خفاجة ما أخبره به من خبر توبته فقال : أخبرني أنه لما أقلع عن صبوته ، وطلع ثنية سلوته ، والكهولة قد حنكته ، وأسلكته من الإرعواء حيث سلكته ، نام فرأى أنه مستيقظ، وجعل يفكر بما مر من شبابه ، وفيمن ذهب من أحبابه ، يبكي على أيام لهوه ، وأوان غفلته وسهوه ، ويتوجع لسالف ذلك الزمان ، ويتبع الذكر دمعاً كواهي الجمان ، ثم استيقظ وهو يقول:[5]

ألا ساجل دموعي يا غمام وطارحني بشجوك يا حمام

فـقـد وفـيـتـهـا ستين حولا ونـادتـني ورائي هل أمام
وكنت ومن لـبـاناتي لبيني هناك ومن مراضعي المدام
يطالعنا الصباح ببطن حزوي فيرفعنا وينكرنا الظلام
وكان به البشام مراح أنس فـماذا بعدنا فعل البشام؟
فـيـاء شـرخ الشباب الإلقاء يـبـل بـه على برح أوام
ويا ظل الشباب وكنت تندي على أفياء سرحتك السلام[6]

شاعر الطبعية

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومبدع في تصويرها،استوحى إلهامه من جمال الطبيعة وسحرالحياة. كما وصفه ابن خاقان في كتابه قائلاً: "ابن خفاجة هو سيد المحاسن، ورائد دروبها، البارع في تنسيقها وتجميلها، الذي يصوغ الكلمات كما تصاغ العقود، ويزينها كما تُطرز الثياب، متقناً تفاصيلها ومبرزاً بريقها. أبدع في مختلف مجالات الشعر كيفما شاءواستخرج من بئر الإبداع ما لم يصل إليه غيره. فجاءت أشعاره رقيقة كنسيم الصباح، وأنيقة كرياض زاهية، تمتزج بالروح وتبهج النفس كما يبهج الغصن الندي.

إن وصف الطبيعة،فهوسيد هذا الميدان بلا منازع، وإن مدح، تفوق على الأعشى في مدحه للمحلق وعلى حسان في مدحه لأهل دمشق. وإذا تناول فنون الوصف، فهو فارس لا يضاهى في ميادينها۔[7]

الطبعية

تُعدُ الطبيعة – بكل ماتحتويه من الأسرار الكونية العظيمة – منهلاً عذباً،استقى منه الشعراء عِبر العصورالأدبية،فلم يدعوا شيئاً فيها إلاّ وصفوه، ولم يتركوا مظهراً من مظاهرها من غير أن يتحدثوا عنه باسهاب، وذلك أمر طبيعي لا غربة فيه، ولاسيما إذا ما علمنا أن الطبيعة هي التي تشعل الروح الشاعرة، وتدفع بالينبوع الكائن في أعماق النفس إلى التفجير والتدفق والانطلاق.

وقداشتهرت الاندلس بطبيعتها الفاتنة، في جبالها وسهولها وانهارها وازهارها ورياضها وطيورها، وهي طبيعة خلبت ألباب الشعراء فتغنوا بمفاتنها ومشاهدها، باثين فيها عواطفهم ومشاعرهم ولعل ما زادهم شغفاً بها اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم[8]، يقول صاحب معجم البلدان: "أما الاندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر. . . تغلب عليها المياه الجارية والشجر والسعة في الاحوال"[9]

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً . ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون في حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوها المعتدل وبساتينها المشرقة، وقد تحدث عن جمالها كلٌّ من حلها، وأفاض المقري في وصف طبيعتها الفتانة وجنانها البهيجة وانتهى إلى أنّ محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة ، ومجاري فضلها لا يشق غباره۔[10]

وقد حبا الله الأندلس بطبيعة ساحرة، كانت مرتعاً خصباً ينهل منه الشعراء صورهم ومعانيهم وأخيلتهم الزاخرة بالجمال، فتؤطر رؤاهم، وتفتن إحساسهم المفعم بالحياة، وذلك بما تحويه من حسنٍ بهيٍّ جسّدته الجبال الخضر،والأنهار والأشجار وطيب النسائم. فضلاً عن ذلك، فإنّ طبيعةالتكوين النفسي للأندلسيين وشدّةتعلّقهم ببلادهم،وافتنانهم ببيئتهم،ساعدعلى نموّشعرالطبيعة،بل أصبح سمةيتّصف بهاالشعر الأندلسي ويتفوّق بها على المشرقيّ، فكان من الطبيعي أن يزدهر وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي، لخصب المجال ووفرته وتعلّق أهله به، خصوصاً أيام استقرارهم النفسي والسياسي۔[11]

وقدكان من أثرجمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس، فتعلق بها الأندلسيون جميعاً

وأقبلوا يسرّحون النظر في خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون كلمهم دراً في وصف رياضها ومباهج جنانها بعد أن فتحت في نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يروونه فيها كما يقول ابن خفاجة أنّ الاندلس جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها، يقول:[12]

يَـا أهلَ أنْدَلُـسٍ لِلهِ دَرُكمُ ماءٌ وظلٌّ وأنهَارٌ وأشْجَارُ
ما جنةُ الخُلدِ إلّا في دياركُمُ ولو تخيّرتُ هَذَا كُنْتُ أَخْتارُ

وقد ملكت معاني هذا الجمال نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغذّتها أفضل غذاء، وكان يكفي أن تهبّ على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصيح مع شاعرها ابن خفاجة:

إنَّ لِلْجنـةِ في الأنْدَلسِ مُجْتَلَى حُسـنٍ وَرَيَّا نَفسِ
فَسَنَاصُبْحَتِهَا مِنْ شَنَبٍ وَدُجَى ظُلْمَتِهَا مِـنْ لَعَسِ
فَإِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ صَبَاً صِحْتُ: وَا شَوْقِي إِلَى الأنْدَلُسِ[13]

إضافة إلى ذلك، اتسم شعر الطبيعة بالصدق في التعبير عن العواطف الجياشة والمشاعرالعميقة التي ألهبتها عوامل عديدة مثل الحب والشوق إلى الوطن. فقد أضفى هذا الصدق على الشعر جاذبيةً أثارت المتعة في النفوس. سواء أكان ذلك من خلال ذكريات الشاعر عن ملاعب صباه ومغامرات شبابه في أحضان الطبيعة الغنّاء، حيث كان يتجول بين مناظرها، يستمتع بجمالها وألوانها، ليستلهم منها صوراً جميلة يخلعها على محبوبته أم من خلال شوقه وحنينه إلى وطنه البعيد.

فقد أثار البعد عن الوطن مكامن شوقه ووجدانه،ممادفعه إلى استحضار تلك الأيام الماضية بلهفة وحسرة على ما مضى،مع بقاءصور الطبيعة التي خزنها في ذاكرته حاضرة أمام عينيه. تلك المشاهد الطبيعية كانت دافعاً قوياً لإبداع الشعر، لما لها من أثر عميق في نفوس الشعراء. لذلك يمكن القول إن وصف الطبيعة في الأندلس كان في الغالب الأعم تعبيراً عن شغف بمظاهرها الجميلة وتجسيداً حسياً لمباهجها، يفيض أحياناً بنبض الحياة ويتوهج بمشاعر صادقة نابضة بالعاطفة.[14]

وتظهر قيمة وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي حين تصبح اللوحة الطبيعية بألوانها ومباهجها مقدمةً لقصائدهم، مستعيضين بها عن مقدمات الغزل وغيرها من الأغراض الأخرى، فأكثروا من أوصاف الورد والأزهار، وتغنّوا بالرياض والأنهار، وبكلّ مظهرٍ من مظاهر الجمال.[15]

ولم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها، بل إنَّ الحياة اللاهية والتي عاشها الشعراء كانت سبيلاً لهذا الازدهار،إذكانت الطبيعة مسرح حياةالشاعراللاهية،وفي أحضانها استسلم للهوه وحبه وخمره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذا الخمر في إطار الطبيعة مقدّماً لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان .وقد قسّمت الدراسات الأدبية شعرالطبيعة تقسيماً ينسجم مع المفهوم العام لمعنى كلمة الطبيعة.[16]

وابن خفاجة لم يترك مظهراً من مظاهر الطبيعة إلا وصفه بأبيات جميلة معبرة من الأوصاف و التشبيهات ما تطير له النفس ارتياحاً وقبولاً وإعجاباً وأخبرنا الفتح بن خاقان أن ابن خفاجة كان يقرض الشعر مرتجلاً ، فقال : " أخبرني أنه لقي عبد الجليل الشاعر بين " لورقة " و" المرية " فباتا ليلتهما " بلورقة " يتعاطيان أحاديث حلوة المشاق ، ويواليان أناشيد بديعة الاتساق إلى أن طلع لهم الصباح ، ومرا بمشهدين عليهما رأسان باديان ، وكأنهما بالتحذير لهما مناديان ، فقال أبو إسحاق مرتجلاً:

ألا رب رأس لا تـزاور بـينه وبـين أخيه والمزار قريب
أناف به صلد الصَّفا،فهو منبر وقامَ على أعلاه فهو خطيب

فقال عبد الجليل مسرعاً:

يقول حذار الاغترار فطالما أناخ قتيل بي ومرّ سليب

وينشد كلانا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

فإن لم يزره صاحب خليله فقد زاره نسر هناك وذيب[17]

وقال الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء" :

"شاعر وقته ، له ديوان مشهور ، ولم يتعرض لمدح ملوك الأندلس ، وهو القائل:

وعشي أنس أضجعتني نشوة فيه تمهّد مضجعي وتدمّث

خلعت عليّ به الأراكة ظلّها والغصن يصغي والحمام يحدّث

والشمس تجنح للغروب مريضة والرعد يرقى والغمامة تنفثُ[18]

نقل الصفدي قول ابن بسام في كتابه : " كان مقيماً بشرق للأندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوكها مع تهافتهم على أهل الأدب ، وله ديوان شعر موجود قد أحس فيه كل الإحسان ، عاش ثلاثاً وثمانين سنة توفي من جزيرة (شُقر) سنة533هـ "[19]

مكانته

لقد كان لابن خفاجة مكانة رفيعة في نفوس الأندلسيين،وكانوا يعجبون به وبشعره حتى ليرفعوه إلى الأفق الأعلى،يقول الفتح بن خاقان في كتابه ويصفه وصفاً دقيقاً :"مالك أعنة المحاسن وناهج طريقها العارف بترصيعها وتنميقها،الناظم لعقودها،الراقم لبرودها،المجيد لإرهافها،العالم بجلائها وزفافها "[20] وبهذه المكانة الرفيعةالمتميزةاستحق ابن خفاجةلقب"صنوبري الأندلس" كما وصفه المقري في النفح وصفاً تامّاً :وكان صنوبري الأندلس أبوإسحاق ابنخفاجة، وهو من رجال المسهب والمطرب والمغرب ، وشهرته تغني عن الإطناب فيه،مغري بوصف الأنهار والأزهار،وما يتعلق بها،وأهل الأندلس يسمونه الجنان ـ[21]

شعره

أما شعره فهو من النوع الوجداني الإبداعي المملوء بالصور والأخيلة، كما قال أحمد حسن الزيات في وصف شعره :"ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها،قدامتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة ،فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي ـ"[22]

تناول شعره مختلف الأغراض الشعريةمثل الغزل والوصف والمدح والرثاءوالشكوى،والعتاب، والفخر. ومع ذلك تميز واشتهر بوصف الطبيعة ومشاهدها الخلابة الآسرة. وبرزت الطبيعة كعنصر أساسي في كل أغراضه الشعرية،فإذامدح أو رثى أوتغزل،كانت الطبيعةحاضرةفي صوره وأوصافه.أماوصفه للطبيعة على وجه التحديد، فقد أجمع الجميع على تفوقه فيه، مما جعله أفضل شاعر لوصف الطبيعة في الأندلس. كما قال المقري: "وهل فيكم من تفوق في وصف الرياض وما يتصل بها،حتى بلغ قمة الإبداع وتفوق على من حاول اللحاق به، وهو أبو إسحاق ابن خفاجة.[23]

هناك عوامل كثيرة لعبت دوراً هاماً في جعله أشهر وصافي الطبيعة وجعله شاعر شرقي الأندلس ، منها ما كان خارجياً ، ومنها ما كان داخلياً ، فالطبيعة الأندلسية بجمالها عامةً ، وما امتازت به جزيرة شقر خاصةً من أنهار وأزهار ورياض وبساتين ، وهذه الطبيعة قد سحرت ابن خفاجة ، واستولت على لبه وعقله بل إن هذه الصلة الوثيقة بها قد أثرت في نفسه أثراً بالغاً ، ويرى الأندلس على أنها جنة الخلد، فيقول:

يا أهل الأندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار

لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار[24]

وهناك باعث آخر قد زاد من إقبال ابن خفاجة على وصف الطبيعة والتغني بها وهو حياة اللهو والمجون وشرب الخمر ومجالس اللهو والطرب ، وهذه الحياة كانت أهم عامل في تطور وصف الطبيعة لديه،وقدوصف لنا ابن خفاجة هذه المجالس في صورة الأشعار منها ، ما يتغني بمجلس لهو ويصف ما فيه من شراب وروض وماء وحمام:

سقيًا ليوم قد أنختُ بسرحةٍ ريّا تُلاعبُها الشمال فتلعب
سكرى يغنّيها الحمام فتنثني طرباً ويسقيها الغمام فتشرب
يلهو فترفع للشبيبة راية فيه ويسرج للتصابي مركب
ويكرمن كأس المداحة أشقر يجري ويطلع للسلافة كوكب
والروض وجه أزهر والظل فر عٌ أسود والماء ثغر أشنب[25]

صوّر ابن خفاجة في أشعاره مشاهد الطبيعة الأندلسية بمهارة وإبداع، حيث تناول تفاصيل الأشجار والرياض، والأزهار والأنهار، والحيوانات والنجوم، بالإضافة إلى الشمس والقمر. فقد استلهم من بيئته الطبيعية الجميلة كل ما وقعت عليه عيناه، وبرع في وصفها حتى استحق لقب شاعر الجنان.

في هذا السياق، يستعرض الباحث بعضاً من أشعاره التي تناولت وصف الطبيعة، ومن أبرزها قصائده في وصف الأزهار. ومن أروع ما نظمه هو وصفه لزهرة الخيري،التي تتميز بمنظرها الناعم الهادئ وعطرها الفواح الذي يتسلل في الليل. فقد أبدع في رسم صورة لهذه الزهرة ببلاغة ساحرة.

وخيرية بين النسيم وبينها حديث إذا جَنّ الظلام يطيبُ
لها نَفَسٌ يَسرى مع الليل عَاطِرٌ كأن له سرا هناك يريب
يدبُّ مع الإمساء حتى كأنما له خلفَ أستارِ الظلام حبيبُ
ويخفى مع الإصباح حتى كأنما يظل عليه الصباح رقيب[26]

ويرى ابن خفاجة شجرةً منورةً كساها نورها فتنة وبهجة فيصفها وصفاً جميلاً وقد تراكمت عليها قطرات الندي،فيقول:

يا رب مائسة المعاطف تزدهي من كل غصن خافق بوشاح
مهتزة يرتج من أعطافها ما شئت من كفل يموج رداح
نفضت ذوائبها الرياح عشية فتملّكتها هزّة المرتاح
حطّ الربيع قناعها عن مفرق شمط كما ترتد كأس الراح
لفاء حاك لها الغمام ملاءة بست بها حسنا قميص صباح
نضح الندي نوارها فكأنما مسحت معاطفها يمين سماح
ولوي الخليج هناك صفحة معرض لثمت سوالفها ثغور أقاح[27]

إن الشعراء الأندلسيين مزجوا الطبيعة بشعرالهموم والشكوى،وهذا أمر جديد، لكن مزج الطبيعة بالحزن والبكاء عند الأندلسيين أمر عجيب وهذا شيءجديد لا يوجد له نظير في نتاج الشعر العربي.

ومن أروع الأبيات التي قالها ابن خفاجة في رثاء الوزير أبي محمد عبد الله ابن ربيعة:

في كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندي غبّ البكاء ورنّة المكّاء
يا مطلع الأنوار إن بمقلتي أسفا عليك كمنشأ الأنواء
وكفى أسى أن لا سفير بيننا يمشي وأن لا موعد للقاء

فـيـم الـتـجـمل في زمان بزّتي ثوب الشبـاب وحـلـية النبلاء
فـعـريـت إلا من قـنـاع كآبة وعطلت إلا من حـلي بكاء
فـإذا مـررت بـمـعـهـد لشبيبة أو رسم دار للـصـديـق خلاء
جـالـت بـطـرفي الصبابة عبرة[28]

يقول مصطفى الشكعة: إن ابن خفاجة تجرأ على خوض هذا الأسلوب الجديد المتمثل في مزج الطبيعة بالرثاء. فهل نجح في تقديم شيء ذي قيمة من خلال هذه المحاولة؟ لا شك أن الطبيعة الساحرة تمثل رمزاً لبداية الحياة وجمالها. الحياة وبهجتها وغناءها وبسمتها ، والرثاء يمثل نهاية الحياة وآلامها، وبكاءها والحسرة عليها، ومن ثم كان الجمع بين الطبيعة والرثاء جمعاً بين نقيضين۔"[29]

الخاتمة

تتناول هذه النقاط أبرز النتائج التي توصل إليها البحث:

- دور الحضارة والطبيعة الأندلسية في تطور شعرالطبيعة: أظهرت دراسة حياة ابن خفاجة أن البيئة والحضارة الأندلسيين لعبتا دوراً محورياً في تطور شعرالطبيعة، مما أسهم في جعله أحد أبرز شعراء وصف الطبيعة في عصره.
- وصف الطبيعة كمرآة لحياة الأندلس:أثبت البحث أن وصف الطبيعةفي شعرابن خفاجة يمثل انعكاساً صادقاً لحياة الأندلس بأبعادها المختلفة، حيث يظهر ترف الأندلسيين وبساطتهم، آلامهم وآمالهم، مما جعل الطبيعة عنصراً متجلياً بوضوح في أعماله.
- الإبداع الفني في شعرالطبيعة: توصل البحث إلى أن ابن خفاجة بلغ قمة الإبداع في وصف الطبيعة، متجاوزاً بعبقريته حدود عصره، بل وتفوق على الثقافة الغربية في إبداع هذا النوع من الشعر والوصول به إلى ذروة الجمال الفني والفكري.
- تميزه في أغراض الشعر مع شهرة وصف الطبيعة: على الرغم من تناوله مختلف الأغراض الشعرية، اشتهر ابن خفاجة بوصفه للطبيعة بأسلوب غني بالصور البديعة والتشبيهات المبتكرة والاستعارات المستوحاة من بيئة الأندلس، مما أثار إعجاب القلوب واستحسان النفوس.
- عاطفةصادقةوانسجام مع الطبيعة:أثبت البحث أن ابن خفاجة عبّر عن الطبيعة بعاطفة عميقة وتأثر سريع بمظاهرها،مستفيداًمن ثقافته الواسعة وأفقه الرحب،مما أضفى على أشعاره إحساساً إنسانياً قوياً.
- مزج الطبيعة بالرثاء بأسلوب فريد:توصل البحث إلى أن ابن خفاجة جرؤ على الجمع بين جمال الطبيعة وعذوبة الرثاء،حيث صورالطبيعة كمصدر للحياة وفرحها وابتسامها، والرثاء كنهاية مؤلمة وبكاء وحسرة. ورغم صعوبة المزج بين هذين النقيضين، نجح في تقديم هذا المزيج بأسلوب بديع يبعث الراحة والإعجاب في نفوس المتلقين.

الهوامش

1 ابن خلكان،شمس الدين،**وفيات الأعيان**،تحقيق:إحسان عباس،(بيروت:دارصادر،1978م)،16/1۔

2 الزركلي،خيرالدين،**الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**،(بيروت:دار الكتب العلمية،الطبعة الثانية،1997م)، 57/1۔

3 ابن خاقان،ابونصر الفتح بن محمد،**قلائد العقيان**،تحقيق:حسين يوسف،(اردن:مكتبة المنار،1989م)،ص232۔

4 ايضاً۔
5 ايضاً۔
6 ابن خفاجة الاندلسی،**ديوان ابن خفاجة**،تحقيق:عبدالله سنده،(بيروت: دارالمعرفة،الطبعة الأولى،2006م)،ص281۔
7 ابن خاقان،**قلائد العقيان**،ص230-231۔
8 محمد مجيد السعيد،**الشعرفي عهد المرابطين والموحدين في الأندلس**،(بغداد:دارالرشيدللنشر،1989م)،ص41۔
9 ياقوت الحموي،**معجم البلدان**،(مصر:مطبعة السعادة،1904م)، 262/1۔
10 المقري،أحمدبن محمد،**نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب**،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد،(مصر:مطبعة السعادة،1949م)،ص323۔
11 قاسم الحسيني،**الشعرالأندلسي في القرن التاسع الهجري**،(قاهرة:الدارالعالميةللطباعةوالنشر والتوزيع،1986م)، ص224۔
12 ابن خفاجة،**ديوان ابن خفاجة**،ص85۔
13 ايضاً،ص94۔
14 جودت الركابي،**الطبيعة في الشعر الأندلسي**،(بيروت:دارالفكر،بدون سنة)،ص50۔
15 إحسان عباس،الدكتور،**تاريخ الأدب الأندلسي:عصر سيادة قرطبة**،(بيروت:دارالثقافة،1969م)،ص73۔
16 شلبی، سعد اسماعيل،**البيئة الأندلسية و أثرها في الشعر**،(قاهرة: دار نهضة مصر للنشر،1978م)،ص105۔
17 ابن خاقان،**قلائد العقيان**،ص231-232۔
18 الذهبي، أحمد بن عثمان،**سير أعلام النبلاء**،(بيروت:مؤسسة الرسالة،1996م)،51/18۔
19 صلاح الدين الصدفي،**الوافي بالوفيات**،(بيروت:داراٍحياء التراث العربي، الطبعة الأولى،2000م) ،55/6۔
20 ابن خاقان،**قلائد العقيان**،ص232۔
21 المقري،**نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب**،488/3۔
22 أحمد حسن الزيات،**تاريخ الأدب العربي**،(دلهي :مطبعة فيصل، بدون سنة)،ص248۔
23 المقري،**نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب**، 200/3۔
24 ابن خفاجة،**ديوان ابن خفاجة**،ص133-134۔
25 ايضاً،ص40-41۔
26 ايضاً،ص30۔
27 ايضاً،ص79-80۔
28 ايضاً،ص18-19۔
29 مصطفى الشكعة،**الأدب الأندلسي**،(بيروت: دارالعلم للملايين،الطبعة الحادية عشرة، 2005م)،ص355 ۔